غابرييل غارسيا ماركيز

د.فؤاد عبد المطلب
جامعة جرش - الأردن

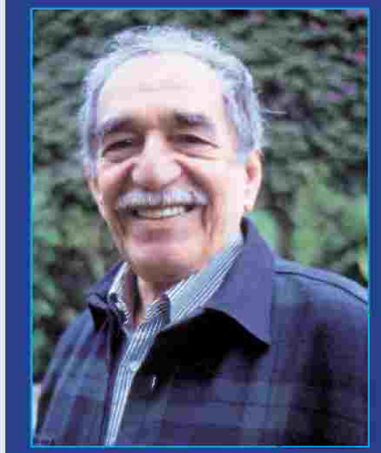

غابرييل غارسيا ماركيز

تمتاز أعمال الكاتب الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز بسحر خاص، فقد صنع من الكلمة الأدبية بالأسبانية روايات وقصصاً ستبقى خالدة في سجل الأدب العالمي. (مئة عام من العزلة)، (خريف البطريرك)، و(الحب في زمن الكوليرا)، والعديد من الراويات والقصص وسيناريوهات الأفلام والتحقيقات الصحفية قدمها ماركيز لقرائه في كثير من بلدان العالم. وعندما أعلن عن فوز ماركيز بجائزة نوبل للآداب لعام 1982، كانت أعماله قد ترجمت إلى لغات عدة. كان عدد كبير من المهتمين العرب قد قرؤوا روايته العظيمة (مئة عام من العزلة) التي عدت أهم رواية صدرت باللغة الاسبانية بعد رواية سرفانتس (دون كيشوت). التزم ماركيز بقضايا مجتمعه، والإنسان في العالم كله. وتدور موضوعات أعماله حول الشركات الاحتكارية وزراعة الموز والعلاقات الإنسانية بمختلف ألوانها وبخاصة المأساوية والعاطفية منها: وتبرز (ماكوندو) القرية أو المدينة التي تقع في طرف من أطراف كولومبيا المنسية كقاسم مشترك في رواياته، كما ينسحب ظلها على قصصه أيضاً، فماذا تمثل (ماكوندو) في الواقع العياني؟ أهي قريته (أراكاتاكا)، أم كولومبيا، أم أمريكا اللاتينية؟ وتختلف الآراء والنظريات حول جوهر هذا المكان، الذي تتحرك فيه الشخصيات، وتتعاقب أو تتزامن الأحداث لتصبح فيه مسرحاً للحياة الفعلية. إن عالم ماركيز مفعم بالحركة النابضة والمعجزات والغرائب التي يتقبلها الجميع بمتعة ورضا.

تقاعد ماركيز من الحياة العامة لأسباب صحية، فقد أصابه مرض عضال الشفاء منه نادر الحدوث. وكان قد بعث مؤخراً برسالة وداع إلى أصدقائه ومعارفه، ثم تناقلتها وسائل الإعلام. استلمت هذه الرسالة من صديق عبر البريد الالكتروني ورأيت أن أنقل تأملات غابرييل ماركيز وتبصراته الجميلة في الحياة التي هي حقاً جديرة بأن تعاش. فقد كتب هذا العبقري وهو يقول وداعاً إلى الأبد:

رسالة وداع

لو أن الرب ينسى برهةً قصيرة أني أصبحت رجلاً عجوزاً
ويمنحني شيئاً من حياة جديدة،
فإنني سأعيشها بكل جوارحي.
حينئذٍ لن أفصح عن كل ما يدور في خاطري،
لكنني على الأغلب سأفكر في كل ما أقوله
سأقوّم الأشياء لا من أجل قيمتها، بل من أجل معانيها.
سأنام قليلاً، وأحلُم كثيراً،
ذلك لأني أعرف أننا في كل دقيقة نغمض فيها أعيننا.
نضيّع ستين ثانية من النور.
سأدخل أرضاً أحجمَ الآخرون عن المضيِّ فيها،
وسأستيقظ عندما ينام الآخرون،
سأنصت عندما يتكلم الآخرون،
وإلا فكيف أستمتع ببوظة الشوكلاه المثلجة.
لو يمنحني الله نفحه من حياه جديدة،
فإني سألبس ثياباً بسيطة،
وسألقي بنفسي في وجه الشمس،
غيرَ تاركٍ تحت رحمتها جسدي العاري فحسب بل وروحي أيضاً.
يا رب، لو كنتُ حينئذٍ أملك الشجاعة، لكتبت كراهيتي على الثلج،
وانتظرت حتى تمحوها أشعة الشمس.
وفوق النجوم سأكتب قصيدة مثل بينديتي بألوان حُلُم من أحلام فان غوخ،
وأهدي أغنية سيرات✳ للقمر، أغنيها ليلا في الهواء الطلق،
مثل عاشق تحت نافذة محبوبتِه.
سأسقي الأوراد بدموعي،
كي أشعر بوخز شوكها،
وبتقبيل بتلاتها الحمراء.
لو يمنحني الله شيئاً من حياة...
فلن أدع يوماً واحداً يمر دون أن أقول للناس
إني أحب أن أحبهم
وسأقنع كل امرأة ورجل
أنهم هم من أفضل،
وأخبرهم إلى أي مدى أحبهم ولن أنساهم.
وسأثبت للناس كم هم مخطئون عندما يظنون
أنهم يتوقفون عن الحب عندما يكبرون في السن،
وأنهم حقيقة لا يكبرون في السنِّ إلا عندما يتوقفون عن الحب!
للطفل سأقدمُ أجنحةً،
لكنني سأتركه يتعلم وحده كيف يطير.
وسأقول للعجوز إن الموت لا يأتي عندما يبلغ من العمر عِتياً،
لكنه يأتي عندما يبدأ بالنِّسيان.
لقد تعلمت الكثير منكم جميعاً أيها الناس...
فقد تعلمت أن كلاً منا يرغب في العيش على قمة الجبل،
ولكن من دون أن يعرفَ أن السعادة تكمن في محاولة تسلقِه.
وتعلمت أن الطفل الوليد عندما يقبض
أول مرةٍ بكفه الغضّةِ على أصبع والدهِ،
فإنه يأسِرُه إلى الأبد.
وتعلمت أن للمرء الحق في أن ينظر إلى إنسان أدنى منه
فقط عندما يكون واجباً عليه مساعدتُه للوقوف على قدميه.
ولكن لا يغدو لهذهِ الأشياءِ حقيقة أيّةَ قيمه،
عندما أقوم بوضعها في هذه الحقيبة الصغيرة
وقتئذٍ سأموتُ وأنا غيرُ سعيدٍ.

✳ السَّريناد: لحن يُعزف أو يغني ليلاً Serenade في الهواء الطلق، وبخاصة من قبل عاشق تحت نافذة محبوبته (يعزف أو يغنى سيرينادا)

الفِراق والغربة

محمد حمدان الرقب - الأردن

الإنسان كما هو ابن بيئته فإنه أيْضًا ابن ذاكرته، فهي غالبًا ما تحدد اتجاهه ومساره، وذلك حَسْب تقبّله لنفسه أو ازدرائه لها، فطريق مستقبله محفوف بالمخاطر إذا ما استسلم لذاكرته بوصفها تنتظم صورًا ولوحات فنيّة قد تكون مرّة أو طيّبة.

كما أنه يستطيع أن يتجاوز المحن إذا كان ذا فكر متقبّل لروح الارتكاس، وأن هذه الدنيا هي ليست هدفًا بحدّ ذاتها، وإنما طريق موصل إلى الغاية الرئيسة والحياة الحقيقية في الآخرة حيث النعيم الخالد.

ويبدو أن المصاعب التي تعتور طريق الإنسان كثيرة جدًا، ويصعب تصنيفها حسْب درجة خطرها، إذ إن طبائع البشر وأمزجتهم تتفاوت تفاوتًا ملحوظًا، فربما مشكلة يقع فيها شخصٌ تسبب له ضغوطًا نفسية كبيرة قد تعصف بحياته ولا تُخْرِجْه سويًا، وقد تكون المشكلة ذاتها تلمّ بشخص آخر تقوّي من عزيمته وتجعله يكتسب الجلد ويتدرّب على الصبر.

وتبقى المشكلات الأكثر اهتزازًا للذات البشرية على الرغم من تباينها هي التي تنجم عن الفراق، الذي قد يكون بسبب فقد عزيز أو غدر حبيب أو نزول نازلة...! فتركيز الشخص ينصبّ حول "ما بعد الفراق" وليس على الفراق نفسه في أغلب الأحيان. ذلك أن الشخص لأول وهلة قد لا يتخيل حياته دون ذلك الإنسان الذي كان يشكل بؤرة حياته ومحور اهتمامه، فتشرع الذاكرة بمدّه بصورٍ قد تكون تخيّليّة للمستقبل الأسود الذي ينتظره، وقد تكون صورًا أو "أفلامًا" تسجيلية لما حدث بينهما من وصال في الماضي الجميل.

إنّ الذاكرة ناقوس الخطر، تجعلك تعيش فيها أكبر عدد من الأيام، بله السنوات، خاصة إذا كان المفارَق إنسانًا ينتمي فكره إلى حقل "الفلسفة" حيث الحياة الأفلاطونية والمدينة الفاضلة والحبّ الخالد والحبيب الذي يضحّي بكلّ شيء ويجعل كلّ الظروف دَبْر أذنيه وحاشية في كتابه، ويجعل الطرف الآخر مَتْنَ ذاك الكتاب الذي لا يكتمل إلاّ بمبدأ الاتحاد والحلول به.

يصعب على هؤلاء أن يتقبّلوا تصاريف الحياة بروح رياضيّة، وأن يعذروا الظروف أو الحبيب الظاعن. إن السببَ الحقيقي الكامن خلف نظرهم هذا هو رغبتهم في علاقة طويلة الأمد تمتدّ طوال العمر، ولذا لا يتفّهمون الظروف ولا الأسباب التي تحول دون الالتقاء الأبدي بالحبيب في حياةٍ واحدةٍ قوامُها جسدان بروحٍ واحدة انصهرت في حبّ جارف لا يقبل التراجع. وقد يكونُ حبّ التملك سببًا آخر في نظرتهم تلك، فمشاعر الغيرة قد تكون طافحة فيهم، فهم قد يتنازلون عن أي شيء مقابل عدم إزعاج الطرف الآخر، فهو يخافون من أي مشكلة أو معضلة تذهب به إلى حيث لا مآب، ومع ذلك نجدهم يتشبثون كثيرًا بالطرف الآخر ويرغبون في امتلاكهم امتلاكًا كاملاً، فالحبيب مِلْكٌ لهم وحدهم لا يجوز أن يشاركهم فيهم أحد.

ولكن إن وقع الفراق فحقًا إن الآثار التي سيخلّفها فيهم لن يستطيعوا بسهولة أن يتخلصوا منها، فالحياة بعد أن كانت كلها وَقْفًا عليهم، لا يزورون مكانًا إلا وصورتهم منتشرة فيه، منسدلةً من السماء، ومبثوثةً على جنبات الطرق. أمام أعينهم. على أيمانهم وشمائلهم. وأصواتهم يسمعونها في كل مكان، في خرير الماء ووقع الأمطار، وشجو البلبل، وزقزقة العصافير، وهديل الحمام، وروائح عطرهم تفوح في ثنايا الأنفاس لكأنها معلقة بأنوفهم. فكيف يمكن لهم أن يتخلصوا من كل هذه الذاكرة التي هي تاريخم! أيتخلى أحد عن تاريخه..؟! فيدخلون في متاهات الاكتئاب والحياة الصوفية المنعزلة. ويصابون بحدّة رومانيكية كامنة، فضلاً عن حدّتهم الأصيلة فيهم. فيقلّ تواصلهم بالعالم الخارجي، ويأنفون من كلّ شيء، ويقبعون في زاويةٍ مظلمة يتأملون أنفسهم ويتفحّصونها من داخلهم إلى داخلها. إنهم حزينون في حياتهم الطبيعية، فكيف الحال وقد أصبحوا بنصف حياة أو يغيض...؟؟!

بعد أن ظفروا بالمحبوب ووجدوا ما يسقي عطش قلوبهم، ويروي غلّتهم، وتستقرّ حياتهم وتستحيل إلى جمالٍ وغبطة وسرور، فإذا هو يرحل، ويهدم سعادتهم على عروش قلوبهم، ويقطع السبيل عليهم–سبيل الاتحاد الكامل والحَلول التام.

وهنا يتولّد الوَجْد؛ الذي عادةً ما ينبجس من شوقٍ إلى الغائب، أو أسف على فائت، أو ندم على ماضٍ كما جاء في اللمع للسراج الطوسي.

ولهذا نجد لشخصيّة ابن حزم الأندلسي مثلاً تحليلاً في هذا السياق إذا علمنا أنه لم يغتسل سبعةَ أشهر كمدًا على موت زوجته (نُعْم) بعد أن ملأت عليه حياته، فهي كانت أمنية المتمني وغاية الحسن خَلْقًا وخُلقًا، وعقلاً وعفّةً، وأخذ في بكاء طويل مع أنه كان معروفًا بأكل الكُنْدَر وهو طعام تجمد معه العينان.

فإذا عَرَفْنا هذا تبيّن لنا عَرْضِه في (طوق الحمامة) لهذه الحادثة (الفراق) بعد مدّة طويلة وكيف أنه لم يَنْسَ الأيام الخوالي معها؛ حيث يقول "وإن حنيني إلى كلّ عَهْدٍ تقدم ليغصّني بالطعام ويشرقني بالماء... وما انتفعتُ بعيْش ولا فارقني الإطراق والانغلاق مُذْ ذقْتُ طعمَ فراق الأَحبة، وإنه لشجىً يعتادني وولوع همّ ما ينفكّ يَطْرقني، ولقد نغّصَ تذكّري ما مضى كل عيش استأنفته، وإني لقتيل الهموم في عِداد الأحياء، ودفين الأسى بين أهل الدنيا".

إذن، كانت زوجته في عداد الظاعنين، والظاعن أصبح جزءًا من الماضي، فمحور حياته لم يتحوّل إلاّ إلى الأسوأ، فهو يدور حول نُعْم، وهذا شأن من يطلب حبًا عفيفًا يتجاوز الجمال الجسدي ليصل إلى الجمال الروحي، فالحب هو حبّ الخلود، مثلما هو حبّ الخير.

وهذا الأمر حَصل مع شعراء الغزل العُذْري، ولعلنا نستذكر حادثة وقعت مع مجنون ليلى حينما كان في أحد المرات معًا يتشاكيان لهيب الحبّ وناره، فأراد أن يختبرها، وطلب منها أن تمكّنه من نفسها، فرضت ذلك رفضًا شديدًا، فقال إذ ذاك وقد استراح لعفّة الحبّ بينها، والله لو وافقتِ لتركتك منذ هذه اللحظة.

إذن نفهم مما سبق أن الحدّة الرومانتيكية عند هذا الصنف من الأشخاص تكون هي المسيّرة لدفة حياتهم بعد الفراق، ذلك أنّ الفراق قد حال بين الهدف النبيل والمبتغى الأعلى في الدنيا وهو الظفر بالمحبوب والاتحاد معه. فحُقّ لمثل هؤلاء أن ينعزلوا ويحسوا بغربة روحيّة تسري في دمائهم.